قراءة في الخطب الفاطمية والزينبية عليهما السلام

دراسة في ضوء أنساق التداول التعبيري

الأستاذ المساعد الدكتور
فاطمة عبد الأمير راضي السلامي
الجامعة الإسلامية ـ النجف الاشرف
fatimaalsalami12345@gmail.com

Reading in The Sermons of Fatima and Zainab (peace be upon them): A study in The Light of Pragma Expressive

Asst. Prof. Dr.
Fatimah Abdulameer Radhi AL Salami
The Islamic University - Al Najaf Al Ashraf

الملخص:ـ

كانت وما تزال نصوص أهل البيت ﷺ محط عناية واهتمام الدارسين واهتمامهم من مختلف الأديان والمذاهب إذ لعظمة أهل هذا البيت ﷺ لم تشغل نصوصهم أبناء شيعتهم أو أبناء الأمة الإسلامية فحسب بل انتشرت نصوصهم في مختلف بقاع الأرض لما تحمله من سمات خطابية وإعلامية وأخلاقية واجتماعية وتربوية عالية يتأثر بها القاصي والداني ويتنبه الى معانيها الصغير والكبير فيصعق من جمالية وعذوبة الألفاظ وعمق المعاني وأبعادها المعرفية فيتعلق بأصحاب هذه النصوص وينكب على الكتب والمؤلفات بحثاً عن تاريخهم وأصلهم ومنبع هذا العلم فيتعلق بهم كل من عرفهم حق معرفتهم.

ومن هنا كثرت الدراسات فيهم ﷺ وعن النصوص التي وردت عنهم سواء أكانت هذه الفصول أدعية أو زيارات أو خطباً أو أحاديث أو وصايا.... الخ.

ولا يختلف اثنان بأن نساء أهل هذا البيت ﷺ لا يختلفن عن رجالاته فهم من بيت علم واحد قد زقوا العلم والمعرفة زقاً منذ نعومة أظفارهم بل مذ كانوا أنواراً محدقين بعرش الله تعالى.

ومع أن الكلام يطول عن نساء أهل البيت ﷺ إذ كان لكل امرأة منهن رسالتها التي أدتها في زمانها فإننا لا نستطيع هنا التوقف عند جميعهن (عليهن السلام) إلا أننا سنتوقف عند سيدة نساء العالمين فاطمة ﷺ وابنتها زينب الكبرى ﷺ وهما أهم امرأتين من نساء أهل البيت ﷺ وقد كانتا مثالاً لبناتهن وحفدتهن من بعدهن على جميع الأصعدة الدينية والكلامية والتربوية والأخلاقية..

وبما أن هذا البحث مختص بمجال الدراسات اللسانية فسيكون مدار البحث والدراسة عن النصوص اللغوية التي وصلتنا من هاتين السيدتين الجليلتين، وبما أن النصوص التي وصلت عنهما كثيرة فإننا سنؤكد على أهم هذه النصوص والتي كانت لها الأثر الكبير في نفوس المسلمين في عصرهما ﷺ وفي العصور اللاحقة الى يومنا هذا بل كانت هذه النصوص وما زالت محط اهتمام الدارسين لما تحمله من أساليب لغوية عظيمة ولما فيها من تقنيات خطابية ونصية اختيرت بقصد وعناية لتحقق أهدافاً معينة ولتنبه المتلقين على حقائق ثابتة وأصول وقواعد عقدية تعد عماد الشريعة الإسلامية وإن من استمسك بها فاز ومن تخلف عنها ضل وخسر.

الكلمات المفتاحية: أنساق التداول، النسق الابلاغي، النسق الثقافي، التقنيات الخطابية، التقنيات النصية.

Abstract:-

The texts of Ahl al-Bayt (peace be upon him) were and still are the focus of attention and interest of scholars from different religions and sects, because for the greatness of the people of this House (peace be upon him) their texts did not preoccupy the sons of their Shiites or the sons of the Islamic nation only, but their texts spread in different parts of the world because of their rhetorical, informational and moral features. It is highly social and pedagogical, affected by the near and far, and alerts to its small and large meanings, so he is stunned by the beauty and sweetness of the words, the depth of meanings and their cognitive dimensions.

Hence, there have been many studies on them (peace be upon them) and on the texts that were received from them, whether these chapters were supplications, visits, speeches, hadiths, commandments...etc.

The women of Ahl al-Bayt (peace be upon them) are like their men because they are all from one house of knowledge, they have been feeding knowledge and since from their early childhood, but since they were lights staring at the Throne of Allah Almighty.

Although there is a lot of talk about the women of the Ahl al-Bayt (peace be upon them), as each of them had a mission that she performed in her time, we cannot stop here at all of them (peace be upon them), except that we will stop at the Lady of the Women of the Worlds Fatima and her daughter Zainab al-Kubra (peace be upon them), who are the two most important women Among the women of the Ahl al-Bayt (peace be upon them) and they were an example for their daughters and granddaughters after them on all religious, theological, educational and moral levels.

Keywords: Circulation formats, informative format, cultural pattern, rhetorical techniques, textual techniques.

المقدمة:

كانت وما تزال نصوص أهل البيت عليهم السلام محط عناية واهتمام الدارسين واهتمامهم من مختلف الأديان والمذاهب إذ لعظمة أهل هذا البيت عليهم السلام لم تشغل نصوصهم أبناء شيعتهم أو أبناء الأمة الإسلامية فحسب بل انتشرت نصوصهم في مختلف بقاع الأرض لما تحمله من سمات خطابية وإعلامية وأخلاقية واجتماعية وتربوية عالية يتأثر بها القاصي والداني ويتنبه الى معانيها الصغير والكبير فيصعق من جمالية وعذوبة الألفاظ وعمق المعاني وأبعادها المعرفية فيتعلق بأصحاب هذه النصوص وينكب على الكتب والمؤلفات بحثاً عن تاريخهم وأصلهم ومنبع هذا العلم فيتعلق بهم كل من عرفهم حق معرفتهم.

ومن هنا كثرت الدراسات فيهم عليهم السلام وعن النصوص التي وردت عنهم سواء أكانت هذه الفصول أدعية أو زيارات أو خطباً أو أحاديث أو وصايا.... الخ.

ولا يختلف اثنان بأن نساء أهل هذا البيت عليهم السلام لا يختلفن عن رجالاته فهم من بيت علم واحد قد زقوا العلم والمعرفة زقاً منذ نعومة أظفارهم بل مذ كانوا أنواراً محدقين بعرش الله تعالى.

ومع أن الكلام يطول عن نساء أهل البيت عليهم السلام إذ كان لكل امرأة منهن رسالتها التي أدتها في زمانها فإننا لا نستطيع هنا التوقف عند جميعهن عليهم السلام إلا أننا سنتوقف عند سيدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام وابنتها زينب الكبرى عليها السلام وهما أهم امرأتين من نساء أهل البيت عليهم السلام وقد كانتا مثالاً لبناتهن وحفدتهن من بعدهن على جميع الأصعدة الدينية والكلامية والتربوية والأخلاقية..

وبما أن هذا البحث مختص بمجال الدراسات اللسانية فسيكون مدار البحث والدراسة عن النصوص اللغوية التي وصلتنا من هاتين السيدتين الجليلتين، وبما أن النصوص التي وصلت عنهما كثيرة فإننا سنؤكد على أهم هذه النصوص والتي كانت لها الأثر الكبير في نفوس المسلمين في عصرهما عليهما السلام وفي العصور اللاحقة الى يومنا هذا بل كانت هذه النصوص وما زالت محط اهتمام الدارسين لما تحمله من أساليب لغوية عظيمة ولما فيها من تقنيات خطابية ونصية اختيرت بقصد وعناية لتحقق أهدافاً معينة ولتنبه المتلقين على حقائق

ثابتة وأصول وقواعد عقدية تعد عماد الشريعة الإسلامية وإن من استمسك بها فاز ومن تخلف عنها ضل وخسر.

وبما أن لكل من للسيدتين العظيمتين عليهما السلام أكثر من خطبة واحدة تم إلقاءها في مواقف مختلفة وأزمنة مختلفة، وعند التمعن في كلمات وأساليب هذه الخطب يمكن ملاحظة قضية مهمة جداً ألا وهي مع أن السيدة زينب عليها السلام هي بنت الزهراء عليها السلام وهي تلميذتها ووليدة مدرستها عليها السلام أخذت منها ومن أبيها وجدها البلاغة والفصاحة والقدرة على الإبلاغ والبيان والإعلام والأسلوب اللغوي ذو التقنيات الخطابية المؤثرة والمقنعة إلا أن نصوص السيدة زينب عليها السلام قد قيلت في زمان مختلف وفي موقف مختلف عن زمان السيدة الزهراء عليها السلام وموقفها.

وبهذا نلاحظ بأنه مع أن هذه النصوص من معين واحد إلا أن هناك تميزاً ملحوظاً في الأسلوب اللغوي الذي يظهر لنا جلياً في اختيار الكلمات وقصديتها والإبلاغ في الأساليب يختلف بحسب الظروف والمكان والزمان مع مراعاة مستويات المتلقين إذ تتغير التقنيات الخطابية والأسلوبية بحسب المقامات التي تم إلقاء الخطب فيها وبحسب النسق الثقافي الذي اقتضى بأن يكون الخطاب بهذه الصورة التي ورد بها.

فكلاهما عليها السلام إرادتها إثبات أحقية أهل البيت عليهم السلام في نصوصهما وبيان فضلهم وعملتا على تثبيت قواعد الدين الحنيف والرسالة المحمدية الحقة عليها السلام وكلاهما أكدتا على الولاية الإلهية وفيمَ نزلت ولم خصصت بهذا البيت عليهم السلام إلا أن موقف السيدة الزهراء عليها السلام في المسجد النبوي يختلف عن موقف السيدة زينب عليها السلام في مجلس يزيد لعنه الله وكذلك يختلف عن موقف السيدة زينب عليها السلام في الكوفة.

وللقدرة العالية في البلاغة والفصاحة التي تمتعت بها السيدتين الجليلتين عليهما السلام سنرى بأن كلاً منهما أدت رسالتها كاملة في زمانها وهذه الرسالة ليست رسالة من امرأة تتأثر بعاطفتها وبما تكنه من مشاعر وحب واحترام لأهل بيتها بل هي رسالة الهية بكل معنى الكلمة إذ لولا الموقف الذي وقفته كلاً منهما عليها السلام وخصوصاً الموقف الكلامي الذي كانتا فيه، إذ كسرتا توقع المستمع والمتلقين مع مراعاة عظيمة للنسق الثقافي للمتلقين فجاءت خطبهن بنسق إبلاغي فريد من نوعه خلق خطاباً متجدداً أوصل رسالتهما إلى عموم المتلقين وعلى

اختلاف للعصور والأنساق الثقافية، وسنبين هذا الأمر من خلال هذه الدراسة إن شاء الله تعالى لنخلص إلى أنه لولا الموقف الذي وقفته كلاً منهما لما عرف المؤمنون بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم على الفقرات الآتية:-

أولاً: مفهوم النسق، وماذا يقصد بالتداول التعبيري وكيف تترابط الأنساق ببعضها ببعض من جهة، وترتبط بالموقف الكلامي من جهة أخرى.

ثانياً: بين النسقين الإبلاغي والثقافي.

ثالثاً: الموقف الكلامي وأثره في اختيار إلقاء الخطبة في الجمهور.

رابعاً: أهم التقنيات المعتمدة في النسق الخطابي.

أولاً: مفهوم النسق:

هو مفهوم نستعمله كثيراً في كلامنا اليومي عند رؤيتنا شيئاً منظماً ومرتباً على نحو لافت، كقولنا: (كيف قمتَ بتنسيق هذا ؟!) أو قولنا: (ما أروعَ هذا التنسيق !) أو (من نسَّق هذا التصميم؟) أو (هذه لوحةٌ متناسقةٌ) أو (البناءُ متناسقٌ) أو (أنت منسّقٌ ماهرٌ)، وما إلى ذلك.

ونعني به النظام أو التنظيم الدقيق لهذا الشيء أو ذاك، واختيار الأمور المناسبة ووضعها في مكانها المناسب ما أدّى إلى ظهورها بهذا الاتساق الجميل.

واستعمالنا لكلمة (النسق) ومشتقاتها بهذا المعنى لا يبتعد عن دائرة استعمالها اللغوي الفصيح، فالنسق " من كل شيء: ما كان على نظامٍ واحدٍ عامٍّ في الأشياء"[١]، مثل قولنا: نسق الدُرَّ، أي: نظمه، وقولنا: نسقُ الأسنان، إذا أردنا التعبير عن انتظامها وحسن تركيبها، وقولنا: قام القوم نسقاً، وكذلك: غرستُ النخلَ نسقاً، أي: بانتظام[٢].

أما النسق في الكلام: فهو ما جاء على نظام واحد[٣]، وحروف العطف يسميها النحويون حروف النسق؛ لأنَّ الشيء إذا عطفته على شيء صار نظاماً واحداً[٤].

ولم تخرج كلمة (النسق) في مؤلفات علمائنا الأوائل، على المعنى اللغوي نفسه ألا وهو (النظام)، ونجد مصطلح (حسن النسق) ماثلاً أمامنا في الكتب اللغوية التراثية، وهو " أن يأتي المتكلم بكلمات متتالية معطوفات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً بحيث إذا أفردت

كل جملة منه قامت بنفسها واستقل معناها بلفظها "[٥]. أي: أنهم ذكروه في باب العطف، وأطلقوا على أحد قسميه تسمية (عطف النسق).

أما في الدراسة الحديثة، فإننا نجد مصطلح النسق أو الأنساق في علم الاجتماع، وقد ظهرت نظرية تعرف بـ (نظرية الأنساق)[٦]. يدرس فيها علماء الاجتماع الأنساق التي يتكون منها مجتمع ما، مثل: النسق الثقافي، والنسق القضائي، والنسق الاقتصادي، وما إلى ذلك؛ ولأنَّ اللغة نظام اجتماعي تنمو وتتطور بتطور المجتمعات ونحوها، فقد أدّى ذلك إلى دخول مصطلح (النسق)[٧] إلى المؤلفات اللغوية، ومن أوائل العلماء المحدثين الذين استعملوه في مؤلفاتهم، العالم فرديناند دي سوسور، فقد تكلم في محاضراته عن مفهوم البنية والنسق، وقد عرّف اللسان بأنه: نسقٌ من العلامات المعبرة عن أفكار، وأكدّ على دراسة البعد التزامني للسان[٨]، ومن ثَمَّ ظهرت حلقة براغ التي تأثرت بأفكار دي سوسور كثيراً، ولاسيما حديثه عن البنية والنسق، غير أنها جاءت بجديد في موضوع النسق، إذ لم تؤكد على هذا المفهوم المركزي في لسانيات سوسور فحسب، بل عممته ليشمل دراسة اللسان في بُعديه المقارن والتعاقبي، وليس التزامني فقط؛ ذلك بأنَّ البحث في تاريخ الوقائع اللغوية ينبغي أن يكون نسقياً[٩].

ومن هذا يمكن أن نخلص إلى أنَّ معنى (النسق) في العصر الحديث لا يختلف عن معناه عند القدماء، فجميع الدراسات التي توقفنا عندها فسرت (النسق) بأنه النظام من كل شيء.

ثانياً: بين النسقين الإبلاغي والثقافي:

بعد أن عرفنا بأن (النسق) يراد به النظام من كل شيء، سنقف هنا عند نسقين مهمين لهما أثرهما الكبير في الخطاب اللغوي ألا وهما (النسق الإبلاغي) و(النسق الثقافي).

فما المراد منهما؟ وماذا يعني كلاً منهما؟ وكيف يتعاضدان معاً ويؤثران في الخطاب؟

ذلك التعاضد الذي يجعل المتكلم يقصد استعمال مفردة بحد ذاتها أو أسلوباً لغوياً معيناً دون غيره بغية الإبلاغ عن قضية معينة لا تتم إلا عن طريق هذا الاختيار وهذه القصدية في المفردات والأساليب مع مراعاة البعد الثقافي للمتلقين وكيفية فهمهم للخطاب، فهناك معانٍ ظاهرة بسيطة يفهمها عموم المتلقين وهناك معانٍ مفردة لا يفهمها إلا الخواص كل بحسب ثقافته ومرجعياته الفكرية.

وما نقصده بالنسق الإبلاغي هنا هو: نظام متكامل له تقنيات لسانية ونصية وتداولية خاصة به يعمد بوساطتها إلى إبلاغ متلقيه بما يريده ليؤثر فيه ويزيد من تفاعله مع ما يبلغ به[١٠].

إذ لا يراد بـ(النسق) هنا (المستوى) أي بوصفه أحد مستويات اللغة كما ذهب إلى ذلك آخرون[١١]، أي لا نريد من الإبلاغ الوظيفة الإبلاغية في اللغة.

وبما انه نظام متكامل له تقنيات مختصة به وأنواع متعددة يعمد المتكلم الى استعمالها للإبلاغ عن قضية معينة تتناسب مع نوع الإبلاغ عنها مع الموقف الكلامي وما يحيط به من عوامل ومؤثرات مختلفة، فهذه التقنيات سواء النصية أم التداولية يقصدها المتكلم بغية التأثير في متلقيه وإبلاغه رسالته بصورة مقنعة ومؤثرة.

إذ يرتبط النسق الإبلاغي ارتباطاً وثيقاً بالتداولية، فالخطاب ميدان التداولية، ولا نريد بها ما ذهب إليه كل من أوستن وسيرول وغرايس، وإنما نريد بذلك ارتباط الخطاب بالنظرية التداولية من حيث مفهومها الواسع، أي تلك التي ((تخص لسانياً يدرس العلاقة بين مستخدمي الأدلة اللغوية (المرسل والمرسل إليه) وعلاقات التأثر والتأثير))[١٢].

ومما لا يخفى فإن هذا الأمر ودراسة علاقات التأثير والتأثر بين المتكلم والمتلقي تستدعي التوقف عند البعد الثقافي ((من حيث هو بعد لا يمكن التغافل عنه؛ لأنه بعد يكشف عن حقيقة المعنى الذي تكوّن في وعي المتلقي، ويمتلك كل من المعنى المتداول ووعي المتلقي، بعداً ثقافياً يسهم إلى حد كبير جداً في تحديد المعنى؛ لأن الاثنين - وعي المتلقي والمعنى - يخضعان لقوانين وشروط معرفية، هي ثقافية بالدرجة الأولى، وربما يكون هذا الفهم سبباً مقنعاً في وصفها لها بأن التداولية آخر مولود للدرس السيميائي))[١٣].

إذ ((من المعروف سلفاً، أن العناصر الثقافية داخل الخطابات تحتوي على الهيكل الاجتماعي، كالأعراف والتقاليد والدين والطقوس والايدولوجيات..، إلى جانب احتوائها على البنية الفكرية التي تؤطر فكر أبنائها، ويمكن استلهام لسانيات الخطاب لهذه العناصر باعتبار أنها تماثل هذه العناصر الثقافية؛ لأنها بطبيعة الحال نتاج لها وأداة التعبير الأساسية عنها وإمكانية تغيرها وتحولها من جيل إلى جيل يؤكد هذا الارتباط؛ لتوفر سمات شفاهية (التكرار - الصيغ الجاهزة - العبارات (الجاهزة)..) وسمات كتابية (التقاليد الأدبية -

الأنساق الخطابية..)، تجعلها أكثر ملاءمة للانتشار والتوالد ومع تتابع الأجيال وتوالي المتغيرات الحضارية، تتغير طرائق التعبير اللساني))[١٤].

إذن يمكن القول بأنه من ترابط وتظافر جميع العناصر الثقافية من البيئة والمجتمع والأعراف والتقاليد والدين.. الخ. يتألف (النسق الثقافي) الذي يرى بعض الباحثين بأنه يتحدد عبر وظيفته ((وليس عبر وجوده المجرد والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر مناقضاً وناسخاً للظاهر. ويكون ذلك في نص واحد، أو في ما هو في حكم النص الواحد. ويشترط في النص أن يكون جمالياً، وأن يكون جماهيرياً. ولسنا نقصد الجمالي حسب الشرط النقدي المؤسساتي وإنما الجمالي هو ما اعتبرته الرعية الثقافية جميلاً))[١٥].

وجميع ما تم ذكره موجود في خطب السيدتين الجليلتين فاطمة الزهراء عليها السلام وزينب الكبرى عليها السلام، إذ أبلغت كلتاهما عن رسائل وصلت إلى المتلقين وأثرت فيهم وحققت الغاية المنشودة بتقنيات وأساليب لغوية سوف نقف عند أهمها مع مراعاة النسق الثقافي المحيط بالموقف الكلامي في كل خطاب لغوي من هذه الخطب التي هي محل الدراسة.

إذ من غير الممكن التوقف عند الأبعاد التداولية المقصودة في النسق الإبلاغي في هذه الخطب وشرحها وبيان مقاصدها من دون بيان تأثير عناصر الثقافة من أُطر مجتمعية ومفاهيم دينية وعقدية وفكرية وسياسية وعسكرية ونفسية... الخ في كل موقف كلامي، تلك العناصر التي أثرت في المتكلم (السيدة الزهراء عليها السلام والسيدة زينب عليها السلام والملقي (آنذاك) فضلاً عن المتلقي الحالي فنتج الخطاب بهذه الصورة وهذه المقاصد.

ليس هذا فحسب بل تغير هذه العناصر الثقافية من جيل إلى جيل أدى إلى اختلاف جليّ بين نوع الخطاب للسيدتين الجليلتين عليها السلام، فصحيح بأن المجتمع هو المجتمع الإسلامي ذاته لكن الجيل مختلف والمكان مختلف والبيئة مختلفة والمفاهيم الدينية والعقدية والفكرية تغيرت تبعاً لذلك بشكل عام إلا القلة القليلة من المجتمع الإسلامي الذين لم تؤثر فيهم العناصر الثقافية بل ثبتوا على إيمانهم وعقيدتهم الراسخة، فظهر بذلك نظامان من أنظمة الخطاب (ظاهر) للعوام و(مضمر) للخواص لكي يفهموا الرسالة المقصودة من جميع هذه

الخطب، ففاطمة الزهراء عليها السلام وزينب الكبرى عليها السلام عالمتان بجميع هذه العناصر الثقافية، وكيف كان لها الأثر الكبير في الجمهور، فكان اختيار التقنيات الخطابية وفقاً لذلك بغية إلقاء الحجة عليهم من جهة والإبلاغ والإعلام من جهة أخرى.

وسيتم شرح هذا مفصلاً في فقرة الموقف الكلامي؛ لأنه يعتمد على تظافر النسقين الإبلاغي والثقافي، أي بتأثير الثقافي يكون الإبلاغي أكثر تأثيراً.

ثالثاً: الموقف الكلامي وأثره في اختيار إلقاء الخطبة في الجمهور:

قبل التفصيل في الموقف الكلامي ينبغي علينا التوقف أولاً عند مصطلح (سياق الحال) أو (مقتضى الحال) وهو ترجمة للعبارة الانجليزية (context of situation)، وليس يخفي على الدارسين من أن سياق الحال يعد من أهم إسهامات (فيرث) في مجال دراسة (نظرية اللغة)، إذ يعد سياق الحال قمة العمليات الاجتماعية التي يمكن أن تكون مستقلة والحدث الكلامي مركزها فهو عبارة عن سلسلة من الأحداث في قلب الواقع الاجتماعي[١٦].

ومن هذه الأحداث يتكون لدينا ما يعرف بـ(الموقف الكلامي)، ويعد من أهم هذه الأحداث أو العناصر ما يأتي[١٧]:

١- شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما (الثقافي)، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع - إن وجدوا - وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم أيقتصر على (الشهود) أم يشاركون من آن إلى آخر بالكلام. والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

٢- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي وغيرها.

وقد لاحظ الدارسون السابقون بأن نظرية (فيرث) السياقية ليست جديدة على الفكر العربي بل تكاد تكون مصداقاً للمقولة المشهورة (لكل مقام مقال) وتتفق في كثير من جزئياتها مع نظرية (النظم)، ولكن تم تطوير الفكرة القديمة والتوسع فيها وترتيبها وشرحها بشكل أوسع وبتفصيل أدق وأكثر.

هذا التفصيل الذي قلّما نجده في كتب علمائنا الأوائل أمثال الجاحظ وابن جني

والجرجاني...الخ؛ ذلك بأنهم لم يدخلوا أنفسهم بتفصيلات كانت واضحة جلية في زمانهم فيما يتعلق بالموقف الكلامي وأثر ذلك في مقاصد المتكلم وتأثر المتلقي ومدى فهمه لهذه المقاصد، الأمر الذي يجهله الكثير في أيامنا هذه فأدى ذلك إلى التفصيل أكثر في جزئيات الأمور.

وعندما نضع نصب أعيننا على نصوص السيدتين العظيمتين فاطمة الزهراء عليها السلام وزينب الكبرى عليها السلام، نلحظ بأن جميع ما تقدم ذكره من عناصر (الموقف الكلامي) قد أخذ بنظر الاعتبار من قبلهما عليها السلام، بل إننا إذا عمدنا إلى تحليل عناصر ومكونات كل موقف منها سنفهم لِمَ قصدت كلاً منهما عليها السلام استعمال أساليب لغوية معينة دون غيرها في ذلك الموقف، ولِمَ ردّت كلاً منهما على الجمهور (الحضور) بتلك النغمة باستعمال تلك الكلمات التي بات أثرها على الجمهور جلياً واضحاً من تأثرهم بها وبكائهم من عمق معانيها، وسنفهم الهدف الذي نشدته كلاً منهما عليها السلام من جرّاء ذلك.

وقبل الشروع بتحليل عناصر (الموقف الكلامي) في خطب السيدتين الجليلتين عليها السلام ينبغي لنا بيان قضية مهمة ألا وهي بأننا سنعتمد على تحليل نصوص الخطب التي وردت في مصادر معتبرة وصحيحة السند ولتخصص مجال هذه الدراسة بالجانب اللغوي دون الجانب الحديثي لم نخصص فقرة نذكر فيها تفصيل ذلك، إذ تمّ بيان ذلك في الكثير من الدراسات والمصادر المهمة السابقة(١٨).

وكذلك لن يكون تحليلنا لعناصر الموقف الكلامي بحسب تسلسل الخطاب في النصوص من أوله إلى نهايته، بل سنتوقف عند مقاطع مهمة من هذا الخطاب تظافرت فيها عناصر الموقف الكلامي وترابطت فيما بينها فعبّر عنها بهذا الأسلوب وصيغت كلماتها بهذا الصياغة.

وبيان ذلك في الآتي:

١ـ شخصية المتكلم.

لا يختلف اثنان بأن السيدة زينب عليها السلام هي وريثة أمها الزهراء عليها السلام، وبأن النصوص التي وصلت إلينا وتم التثبت من نسبتها إليها عليها السلام هي بمثابة امتداد رسالي لرسالة السيدة الزهراء عليها السلام التي أوصلتها إلى المتلقي عبر مختلف الأزمان من طريق خطبها ونصوصها. إلا أن لكل من هاتين الشخصيتين العظيمتين ما تمتاز به، بحيث كانت (فاطمة هي فاطمة) و(زينب هي

زينب) بكل ما يحمل هذا التعبير من معنى.

وقد مثّلت كلاً منهما عليها السلام محوراً أساسياً في الموقف الكلامي الذي حصل في زمن كل منهما. إذن شخصية (المتكلم) هنا - أي في نصوص هذه الخطب - لا تعد مجرد أحد أطراف الحوار الأساسي في الحدث الكلامي فحسب، وذلك يتضح من مقام شخص كل منهما عليها السلام ومدى تأثير كلا منهما على (المستمع) وعلى المتلقين الآخرين في زمان الخطاب وفي الأزمنة الأخرى.

إذ عرفت كلاً منهما عليها السلام بالنسب الرسالي الكريم، فهما عندما تحدثتا لم يكن حديثهما وخطابهما كحديث وخطاب باقي النساء، فهما ابنتا رسول الله صلى الله عليه وآله، وكلتاهما عرفت بالعلم والحكمة والفضيلة وجميع مكارم الأخلاق، وهذا ما لم يجهله (السامع) - أبو بكر، نسوة المدينة، ابن زياد، نساء الكوفة، يزيد) في جميع الخطب، بل حاول بعضهم التغاضي عن ذلك وتغطيته واستغفال (الجمهور) بإطلاق الشعارات الدينية تارة وتلفيق أحاديث باطلة عن رسول الله صلى الله عليه وآله تارة أخرى - كما هو الحال في موقف أبي بكر مع السيدة الزهراء عليها السلام. أو محاولة إخفاء الهوية الحقيقية للمتكلم، ومحاولة طمسها وكسرها أمام الجمهور- كما هو الحال في موقف ابن زياد ويزيد مع السيدة زينب عليها السلام - وهذا الأمر كان واضحاً وجلياً عن كلٍ منهما عليها السلام، مما أدّى بهما عليها السلام إلى التأكيد أولاً على تعريف نفسيهما وشخصيتهما إلى الجمهور بشكل كسر توقع (السامع) وأظهر قوة وصلابة كلاً منهما عليها السلام فهذه السيدة الزهراء عليها السلام تؤكد على نسبها وتكرر ذلك في أكثر من موضع وفي أكثر من أسلوب ففي بداية خطبتها في المسجد قالت بعد الحمد لله والثناء عليه: (وأشهد أن أبي محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله) [١٩]، وبعدها قالت عليها السلام: (صلى الله على أبي نبيّه وأمينه)[٢٠]، وفي موضع آخر من الخطبة ذاتها قالت عليها السلام: (أيها الناس! اعلموا أني فاطمة، أبي محمد صلى الله عليه وآله، أقول عوداً وبدواً... فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزيُّ إليه صلى الله عليه وآله وسلم) [٢١]. وفي موضع آخر توجه الخطاب مباشرة إلى السامع (أبي بكر) وتقول: عليها السلام: (يا ابن أبي قحافة! أفي كتاب الله أن ترث أباك، ولا أرث أبي؟)[٢٢]، وبعدها قالت عليها السلام: (وزعمتم ألا حِظوة لي، ولا أرث من أبي لا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم هل تقولون أهل ملتين لا يوارثان، أولستُ أنا وأبي من ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟)[٢٣].

واستمرت عليها السلام في تعريف نسبها برسول الله عليه السلام في جميع فقرات الخطبة من اولها إلى نهايتها بشكل أفحم السامع مع إلى أن أجابها بالتأكيد على جميع ذلك لحفظ ماء وجهه بين الجمهور الذي بدأ تأثره بخطابها عليها السلام واضحاً للعيان فقال: (فإن عزوناه وجدناه أباك دون النساء، وأخاً لبعلك دون الأخلاء)[٢٤]، ولنا وقفة مفصلة عند هذا التكرار ولم قصدت الزهراء عليها السلام هذا وما الغاية منه.

وقد عرفّت السيدة زينب عليها السلام كذلك بنفسها وبشخصها وبنسبها وقرابتها من رسول هذه الأمة محمد صلى الله عليه وآله في مجلس يزيد إذ قالت في أول خطبتها: (وصلى الله على جدّي سيد المرسلين) ومن ثم قالت: (أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وسوقك بنات رسول الله سبايا؟؟) وأكدت على ذلك في أكثر موضع حتى نهاية خطبتها عليها السلام.

٢ـ شخصية (المستمع):

نأتي إلى المستمع الأول (أبو بكر) الذي امتلك شخصية ومكانة بين أفراد المجتمع في زمانه سمحت له بالتأثير بشكل كبير على عدد كبير من المسلمين وحتى في بعض ردوده على السيدة الزهراء عليها السلام حافظ على إظهار المسحة الدينية والظهور بشخصية الورع المتدين الملتزم بتعاليم الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله إذ أجاب السيدة الزهراء عليها السلام بكل احترام وأكد على جملة من المفاهيم التي ذكرتها لكي لا يثير حفيظة الجمهور ومن ثم ادعى أنه سمع حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وآله بأنه قال صلى الله عليه وآله: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) وبما أنه كان يتمتع بمصداقية كبيرة في إيمانه... وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله في ظاهر الأمر فقد استغل جميع ذلك لكسب ثقة الناس وبيان مدى مصداقيته أمامهم.

الأمر الذي عرفته السيدة الزهراء عليها السلام بعلمها وفطنتها وفراستها فأكدت على كونها بضعة الرسول صلى الله عليه وآله وأكدت على أحقية الولاية الإلهية لأمير المؤمنين عليه السلام بأكثر من أسلوب لغوي.

إذن مثلما عمد المستمع (أبو بكر) هنا إلى استعمال وسائل إعلامية ودعاوى عقدية سعى من خلالها للتأثير في الجمهور كان الرد واضحاً من السيدة الزهراء عليها السلام إذ التفتت إلى جميع ذلك ولم يغب عنها شيء منه فكانت طبيعة دخولها وجلستها وأنينها بمثابة جواب ساحق له كسرت فيه توقعه وقلبت موازين الموقف الكلامي إلى جانبها، فهي عليها السلام تعرف المجتمع حق معرفته وهو كذلك يعرفها عليها السلام حق معرفتها ولكنه حاول التغاضي عن ذلك بما بيّناه.

أما المستمعان الآخران للسيدة زينب عليها السلام فهما كل من (ابن زياد) و(يزيد) وكلا الشخصيتين غير مرغوب بهما من قبل أكثر المتلقين في وقتها بل تم تحملهما والسكوت على أفعالهما إما خوفاً من القتل أو طمعاً بالمال والسلطة أو تهرباً من بطشهما، إذ فرض كل منهما آراؤه على الناس بالقوة والجبروت لا بما يعرف عنه من أخلاق أو دين مما دعا بالسيدة زينب عليها السلام إلى التأكيد على إخراجهما من الدين في أساليبها اللغوية التي عمدت إليها والتأكيد على ذلك وبيانه للمتلقين والكشف عن الجرائم التي اقترفاها بحق الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.

إذن كان لاختلاف شخصيات المستمعين وثقافتهم الدينية والاجتماعية أثر في اختيار أساليب لغوية وتقنيات خطابية بحد ذاتها دون غيرها في كل خطبة تم القاءها من قبل السيدتين الجليلتين عليها السلام.

٣ـ المتلقون:

ويمكننا تقسيمهم إلى (متلقٍ في زمان الخطاب) و (متلقٍ في الأزمنة الاخرى ويشمل ذلك المتلقي الحالي وقراءته الحالية).

وهنا تتنوع ثقافات المتلقين مما يؤثر على مستويات الفهم لديهم سواء أكان ذلك في زمن الخطاب أو من تلقاه في الأزمنة الأخرى التي تلته، فبعضهم فاهم لشخصية كل من الطرفين (المتكلم) و(المستمع) حتى أنه اشترك في الحوار أثناء الخطاب وكان لكلامه ومشاركته تلك أثر في الموقف الكلامي وبعضهم لا يعي شيئاً من شخصية الاثنين فلم يعلق بشيء واحتاج إلى توضيح من قبل المتكلم لغرض تعريفه وتوعيته بما يسمع ويرى لكي لا يكون أمعة ينعق مع كل ناعق ويتم استغلاله. أما المتلقي الحالي أو من وصله الخطاب في زمان آخر غير زمن الخطاب الأول لصدوره فكانت له قراءته وفهمه الخاص بحسب مرجعياته الفكرية التي اعتمد عليها في الفهم والتحليل.

٤ـ المكان والزمان:

(المكان الأول) مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وهو بيت الله تعالى ومكان مقدس، يعبد فيه الله تعالى، وقد بناه الرسول صلى الله عليه وآله وسكنت فيه فاطمة الزهراء عليها السلام وما حصل فيه أيام الرسول صلى الله عليه وآله وما كان يقوم به من أفعال وأقوال تجاه فاطمة وبعلها وبنيها عليهم السلام كان على مرأى ومسمع

من قبل الكثيرين من المهاجرين والأنصار ممن حضر خطبة السيدة الزهراء عليها السلام؛ لذلك جاءت ردّت فعلهم بعد أنّها عليها السلام بأن اجهشوا بالبكاء فهم حديثي العهد برسول الله، وبأهل البيت عليهم السلام. ويعرفونهم حق معرفتهم فضلاً عن (المستمع).

وقد كانت مكانة هذا المكان وقدسيته حاضرة عند السيدة الزهراءس عليها السلام وقد راعت عليها السلام ذلك من جميع الجوانب بل كسرت توقع الجمهور الذي احتشد للاستماع إلى خطابها حتى بطريقة دخولها إلى المسجد وحضورها مع لُمَّة من حفدتها ونساء قومها مما يحفظ هيبتها وكوسيلة إعلامية في وقتها لمكانتها عليها السلام، وكذلك فإن في وضع (الملاءة) - كما ورد في عدد من المصادر الموثوقة التي أشرنا إليها سابقاً - بيان لمكانتها وقدسيتها واحترام شخصها آنذاك وحتى (الأنة) التي أنّتها عليها السلام كانت مقصودة في وقتها إذ أرادت من خلالها إيصال رسالة إلى المتلقين تبين موقفها من المستمع (أبي بكر).

في حين المكان الثاني (مكان سياسي) ويمثله دار الإمارة في الكوفة، ومجلس يزيد في الشام. وهما مكانان يخضعان للسلطة البشرية فرض فيهما الطاعة لغير الله تعالى فرضاً وجبراً وغصباً، بحيث كان الحضور إما من الخائفين من بطش السلطة مع علمهم بمكانة المتكلم السيدة زينب عليها السلام أو جاهلين بشخصية المتكلم (زينب عليها السلام مما أدّى إلى تعريفها عليها السلام بنفسها وأهل بيتها بأساليب لغوية سعت من خلالها إلى تكذيب (المستمع) ودحض افتراءاته وزوره وبيان مظلومية أهل البيت عليهم السلام وأحقيتهم الإلهية.

هذا من حيث المكان أما الزمان فمختلف؛ ذلك بأن الموقف الكلامي الأول للسيدة الزهراء عليها السلام كان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله والدين الإسلامي غض جديد، وأغلب الحضور كانوا ممن رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع حديثه، فمكانة الرسول صلى الله عليه وآله حاضرة في نفوسهم ومكانة السيدة الزهراء عليها السلام حاضرة في أذهانهم لذلك حاولت السلطة آنذاك أن تتخذ من لباس الدين والتقوى الزائفين ما تصرف في أذهان الجمهور عن أحقية السيدة الزهراء عليها السلام في فدك وبأحقية الإمام علي عليه السلام في الخلافة.

أما موقف السيدة زينب عليها السلام فكان عام (٦١هـ) وقد تغيرت الكثير من الأحداث والأمور سواء في مجال العقيدة أو السياسة أو الثقافة أو الشؤون الاجتماعية مما لا مجال لذكرها هنا وهي معروفة عند الجميع إذ كتب وألف فيها الكثير[٢٥].

الأمر الذي أدّى إلى (وقوف) السيدة زينب عليها السلام طوال الخطبتين في الكوفة والشام؛ ذلك بأنها أسيرة غريبة في بلدين لا يعرفها فيها أغلب الجمهور آنذاك.

بعد أن بيّنا (الموقف الكلامي) لكل من السيدتين عليهما السلام وتوقفنا عند كل عنصر من العناصر التي تألف منها ذلك الموقف وشرحناه مفصلاً ينبغي علينا هنا أن نوضح قضية مهمة، ألا وهي أثر (الموقف الكلامي) بكل ما فيه من العناصر التي ذكرناها في اختيار المتكلم لنوع الخطاب الذي سيعتمد عليه في الإبلاغ عن رسالته التي يقصد ايصالها وإبلاغها إلى المتلقين؛ ذلك بأن المتكلم الحصيف يضع في ذهنه جميع هذه العناصر المحيطة به من (مستمع) و(متلقين) و(مكان وزمان)، فيعمد الى اختيار الخطاب اللغوي المناسب بالشكل الذي يعكس هويته وشخصيته أمام المتلقين، إذ لا يكون اختيار نوع الخطاب بصورة (اعتباطية) بل يكون مقصودا بحد ذاته، فمرة يتطلب الأمر أن يكون الخطاب بسيطاً كإجابة عن سؤال أو شرح حادثة ما أو التعبير عن رأي أو فكرة معينة، في حين هناك بعض المواقف الكلامية تتطلب بليغاً يستعمل فيه تقنيات نصية وخطابية بحد ذاتها لكي يؤثر في المتلقين، ليس هذا فحسب بل يسعى إلى إقناعهم بما يقول، وذلك الاقتناع الذي يهدف إلى التصديق[٢٦].

وعادة ما كان العرب يعتمدون على (الخطبة) في كل حدث جليل كإصلاح ذات البين وإطفاء نار الحرب وفي العهود والعقود وفي الزواج وغيرها من الأمور والأحداث المهمة التي تستدعي من المتكلم أن يقف خطيباً بين الناس، بل وحتى كلمة (الخطابة) مأخوذة من خطبت أخطب خطابة.. وانشق ذلك من (الخطب) وهو الأمر الجليل؛ لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل[٢٧].

ولم يغفل علماء العصر الحديث جميع ذلك بل اعتمدوا عليه وفصلوا فيه القول أكثر ليس هذا فحسب بل تنبهوا الى الأبعاد التداولية الناتجة من الأنساق الخطابية وهذا ما أشار إليه شو بنهور (schopenhauer) في تعريفه للخطابة بقوله: ((هي ملكة جعل الآخرين يشاركوننا آراءنا وطريقة تفكيرنا في شيء ما، وكذلك ايصال عواطفنا الخاصة اليهم، وجماع القول أن نجعلهم يتعاطفون معنا. ويجب أن نصل إلى هذه النتيجة بغرس أفكارنا في أذهانهم بوساطة الكلمات، وذلك بقوة تجعل أفكارهم الخاصة تنصرف عن اتجاهها الأولي لتتبع أفكارنا التي تقودها في مسارها))[٢٨].

إذن فالخطابة ملكة وقدرة لا يمتلكها كل شخص يمتاز في امتلاكها بعض الأفراد الذين يمتلكون القدرة على الاقناع أي لا يعبرون عن ما في داخلهم فحسب بل يمتلكون لهم القدرة على التأثير في الآخر وإقناعه وتغيير أفكاره ورؤاه وتوجهاته الفكرية والعقدية والاجتماعية والسياسية وغيرها بالشكل الذي يجعله يتبع رؤاهم وأفكارهم عن وعي وفهم وتصديق، ويكون اعتمادهم في جميع ذلك على حجج عقلية وعقدية بحيث يفحمون من يحاول معارضتهم أو محاججتهم أثناء الخطابة وبعدها فيهت من دقة الألفاظ وعمق المعاني التي اعتمدوها أثناء خطابهم.

وجميع ما تقدم كان محط عناية واعتبار من قبل السيدتين الجليلتين فاطمة الزهراء عليها السلام وزينب الكبرى عليها السلام وقد راعتا جميع من ذكرناه فكان اختيارهما لهذه الخطابة التي قدمتاها مقصوداً من جميع الجوانب، إذ لم تكونا مضطرتان لتقديم هذا النوع من الخطاب ولم تجبرهما الظروف على ذلك بل كان ذلك الأمر باختيارهما لتأدية رسالة عظيمة كانت سبباً في تغيير الكثير من الأمور والأحداث بل وحتى الأشخاص في العالم الإسلامي، ولا يقتصر ذلك على زمان الخطاب ومكانه آنذاك بل بقينا نستلهم من خطاباتهم عليها السلام ونسعى للكشف عن مقاصدهما عليها السلام في هذه الخطابات الى يومنا هذا.

رابعاً: أهم التقنيات المعتمدة في النسق الخطابي:

لقد درست هذه النصوص الفاطمية والزينبية عليها السلام دراسات لغوية مستفيضة[٢٩]، ولسنا بصدد الدراسة اللغوية هنا بل بصدد الكشف عن أهم التقنيات التي تم الاعتماد عليها بقصد الكشف عن حقائق ثابتة وبطريقة مؤثرة كسرت أفق توقعاتهم في (المرأة) التي تحاورهم على الرغم من جميع الظروف التي أحيطت بها بل أدت كل منهما عليها السلام رسالتها وتكليفها الإلهي في هذه المواقف بشكل كامل ووفقاً لما يناسب الموقف آنذاك.

فما هي أهم هذه التقنيات اللغوية المعتمدة في خطابهما عليها السلام للفت نظر المتلقين إلى أمور عقدية ثابتة بحيث تم إلقاء الحجة عليهم فلم يستطيع أحدهم أن ينبس ببنت شفة؟!

وبما أن هذا الخطاب كان إبلاغيا فهل تنوعت تقنيات الإبلاغ فيه؟ وكيف انعكس الاعتماد على هذه التقنيات في الخطاب على فهم المتلقين لشخصية المتكلم عليها السلام وللمقاصد التي أرادتا عليها السلام الإبلاغ عنها بهذا الأسلوب وباختيار هذه المفردات وهذه الأساليب

والتقنيات الخطابية؟!

وسنقف هنا عن تقنيتين مهمتين ونفصل القول فيهما، ألا وهما:

١ـ (التكرار) بوصفه تقنية لسانية / ثقافية.

لا يخفى علينا جميعاً أهمية (التكرار) في اللغة العربية، فهو أسلوب بلاغي يعمد المتكلم الى استعماله بغية التأكيد على مفاهيم معينة ومعانٍ مقصودة، يسعى من خلال تكرارها والتأكيد عليها تثبيتها في ذهن المتلقي، بل ويسعى الى البلوغ به الى درجة التصديق بها والعمل بها، فالأمر إذن لا يقتصر على أن هذه الأمور المكررة سواء أكان هذا التكرار لفظياً أم معنوياً في الخطاب هي أمور وقضايا تشكل أهمية عند المتكلم بل وتمثل جزءاً من كيانه في بعض الأحيان وأحد أساسيات وجوده، إذ يتعدى الأمر (المتكلم) ليشمل (المتلقي) أيضاً مع مراعاة اختلاف مستويات الفهم بين المتلقين، والأخذ بنظر الاعتبار اختلاف مرجعياتهم الفكرية أيضاً.

فـ(المتكلم) الحصيف عندما يؤكد على تكرار بعض الألفاظ وبعض المعاني كثيراً في خطابه سواء أكان الخطاب شعراً أو نثراً لا يكون القصد جمالياً - مع أن التكرار يخلق جمالية في الخطابة خصوصاً الشعري منه - فحسب وكذلك لا يقتصر الأمر على (تاكيد) المعاني المعبّر عنها من قبل المتكلم، كما يُعرف عن التكرار البلاغي وأبعاده الدلالية بل يتعدى جميع ذلك ليكون بمثابة تقنية لسانية ثقافية تشمل جميع أطراف العملية الكلامية من (متكلم) و(متلقٍ) و(رسالة) مع مراعاة الموقف الكلامي وأنساق التداول التعبيري المحيطة به، وعلى وجه الخصوص النسقين الثقافي والإبلاغي.

فبسبب النسق الثقافي ومدى تأثيره في المتلقي يكون اختيار الألفاظ أو المعاني التي سيعمد المتكلم الى تكرارها رغبة منه في تحقيق ذاته في ضوء قراءته للآخر، وتأكيده على حضوره وتعاليه عن التجسيدات والأفكار السابقة؛ لأنه يرفض أن يظهر عبر رؤية الآخر، بل يسعى للكشف عن ذاته بنفسه وبأسلوبه هو في التعبير عن ذلك، فيكرر ذكر ألفاظٍ ومعانٍ يحدث منها خلالها أثر في المتلقي بل قد يستحوذ على فكره في بعض الأحيان إذا كان هذا التكرار مدعوماً بالحجة والدليل القاطع، فتهتز بذلك الصورة المرسومة في ذهن المتلقي عما يتكلم به (المتكلم) والتي غالباً ما تكون هذه الصورة تبعية غير أصلية في أذهان عموم

المتلقين بل صيغت بهذا الشكل جراء التأثر بالأعراف والتقاليد المجتمعية[٣٠].

وقد كان (للتكرار) حضوره الجلي في خطاب السيدتين الجليلتين عليهما السلام بنوعيه اللفظي والمعنوي، وإذا توقفنا عند اللفظي منه قرأنا نصوص الخطب التي بين أيدينا قراءة فاحصة سنجد بأن من أكثر الألفاظ التي تكررت في خطبة السيدة الزهراء عليها السلام في المسجد هي لفظ (أبي)، وهنا قد يتبادر الى ذهن بعضهم التساؤل الآتي: لماذا كررت الزهراء عليها السلام لفظ (أبي) في أكثر من موضع في خطابها؟ مع أننا نعلم جميعاً بأن الجمهور الحاضر في المسجد وكذلك المستمع يعرفونها حق معرفتها إذ جلهم من المهاجرين والأنصار، وهم ممن سمع كلام الرسول صلى الله عليه وآله فإن أجبناه عن ذلك بأنه (للتعريف) فأي تعريف يقصد؟! هل التعريف العام من حيث (أب وابنته) أم تعريف آخر؟!

الواضح هنا أنها عليها السلام لا تريد التعريف بكونها ابنة رسول صلى الله عليه وآله فحسب، فهذا أمر يعلمه الجميع، بل هو تعريف بمكانتها عليها السلام ومقامها عند الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسعي منها للكشف عن حقها الإلهي ذلك الحق التي سعت السلطة آنذاك الى طمسه بكافة الطرق والوسائل متلبسة بلباس الدين ومستخفة بعقول عوام المسلمين الذين كان أغلبهم مع الأسف ينعقون مع كل ناعق إلا ما ندر، ذلك الأمر الذي أدّى الى استماعهم الى السلطة وتصديقهم بما تقول كونه (صاحب) رسول الله صلى الله عليه وآله فتفرقوا عن (ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وأخيه علي عليه السلام) ونكلّوا بهم وآذوهم والتفوا حول من غصبهم حقوقهم بدعوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وأين مكانة من قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله: ((فاطمة بضعة مني يؤذيني من آذاها...)) ومكانة من قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: ((من كنت مولاه فعلي مولاه..)) وقوله صلى الله عليه وآله: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى)) من فلان وفلان ؟!!

فالسيدة الزهراء عليها السلام عالمة غير معلمة، فهمة غير مفهّمة، تعلم علم اليقين بنفوس القوم حولهم أهل البيت عليهم السلام آنذاك، وكيف أثرت بهم أقوال وأفعال السلطة، وكيف كانوا متشبثين بالأفكار الجاهلية التي لم ينزل الله تعالى بها من سلطان بل سعى رسول الله صلى الله عليه وآله لتخليص المجتمع الإسلامي من براثنها بكل الطرق وشتى الوسائل، ولكن وكأنما لا حياة لمن ينادي!!

فكان لهذا التكرار للفظ (أبي) في خطبها عليها السلام أبعاد تداولية عظيمة في المجتمع الذي حضر الخطاب فقد أثبتت عليها السلام بهذا التكرار مكانتها ومقامها، بل كان بمثابة عنصر تنبيه للحضور لكي يراجعوا أنفسهم ويتأكدوا من قرارهم مع من يكونوا وهل سينصرون ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله أم يقفوا موقف المتفرج؟! خصوصاً معشر الأنصار منهم؛ لذلك أسمعتهم عليها السلام ذلك الخطاب القاسي الذي أخزاهم في الوقت ذاته وكشفت حقيقتهم وحقيقة إسلامهم للجمهور، وكذلك كان لهذا التكرار أثره في تقديم السيدة الزهراء عليها السلام لحجتها الشرعية بأنها (ابنة) رسول الله صلى الله عليه وآله ولها حق شرعي في الإرث، لذلك قالت عليها السلام بعد ان تلت آيات الإرث: ((وزعمتم أن لا حظوة لي! ولا إرث من أبي! أفخصّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟))[٣١].

وحين التفتت إلى الأنصار ووجهت الخطاب اليهم قالت عليها السلام: ((إيهاً بني قيلة! أأهضمُ تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع...)) [٣٢].

ويبدو بأن هذا التكرار المقصود من قبل السيدة الزهراء عليها السلام لقي صداه في المجتمع آنذاك وبقي الجمهور في حالة تردد في اتباعه لكلام (أبي بكر) و(عمر) وبين مفكر مشغول الذهن بكلام ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، ذلك الأمر الذي لم يستطع إنكاره أبو بكر فحاول التخلص من الموقف الذي وضع فيه فتلبس بلباس الدين وأجابها عليها السلام بجوابه المعروف ودعواه بأنه سمع من رسول الله ((ان معاشر الأنبياء لا يورثون)) ولكن مع الأسف مع علم الجمهور بمكانة الزهراء عليها السلام وأحقيتها وزوجها أمير المؤمنين عليه السلام بالولاية الإلهية والإرث وبعد أن ألقت جميع الحجج عليهم إلا أن أغلبيتهم غرتهم الدنيا فانقلبوا على أعقابهم مما سبب سخطها عليها السلام عليهم وهذا ما نلحظه في خطبتها في نساء المدينة عند عيادتها عليها السلام[٣٣] إذ عندما نقرأ نص هذه الخطبة سنلحظ عدم استعمالها لتقنية التكرار اللفظي لكلمة (أبي) هنا، لأنها أبلغت عما تريده بهذا التكرار في الخطبة الأولى ولم يرتدع أحد منهم ولم يقف أحد منهم معها عليها السلام، وهي على يقين من ذلك مسبقاً ولكنها أدت الأمانة وأبلغت الرسالة.

ولكننا نلحظ في خطبتها في النساء اعتمادها على التكرار المعنوي خصوصاً لمعنى (السخط) عليهم وعدم الرضا عنهم خصوصاً (رجالهن) من المهاجرين والأنصار، فعبّرت عن ذلك بأسلوب لغوي مفحم أخزاهم وبين مدى خذلانهم وجبنهم ولهثهم خلف الدنيا

وملذاتها. إذ تقول عليها السلام: ((أصبحت – والله – عاكفة لدنياكنّ قالية لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم وشنئتهم بعد ان شردهم فقبحاً لفلول الحد، واللعب بعد الجد، وقرع الضعاة، وصرع القناة، وخطلّ الآراء، وزلل الأهواء...)[٣٤].

ولم يكن قصد السيدة الزهراء عليها السلام إبلاغ الجمهور آنذاك بهذه الرسالة التي ذكرناها عن طريق هذا التكرار فصحيح كانوا هم المتلقين الأوائل لهذا الخطاب والمقصودين به ولكن لا يمنع ذلك من استمرار هذا الإبلاغ الى يومنا هذا، فما لم يؤثر فيهم وقتها قد لقي صداه في عدد كبير من الأجيال اللاحقة للمتلقين كل بحسب مرجعياته الفكرية التي تأثر بها وأثرت فيه.

أما بالنسبة للسيدة زينب عليها السلام فنلحظ بأنها عليها السلام أكدت على كونها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وهم أهل البيت عليهم السلام ولكن أغلب التكرار في خطبتها عليها السلام كان معنوياً وليس لفظياً فهي مرة تقول: ((وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حيرتكم..))[٣٥].

وفي موضع آخر تقول من الخطبة ذاتها في أهل الكوفة: ((ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أيّ كبد لرسول الله فريتم، وأيّ كريمة له أبرزتم، وأيّ دمٍ له سفكتم، وأي حرمةٍ له انتهكتم؟!))[٣٦].

فهي عليها السلام لم تكرر مثلاً كلمة (جدي) أو (أبي) أو (أخي) فالموقف هنا مختلف عن موقف السيدة الزهراء عليها السلام في المسجد، إذ لا يجدي التكرار اللفظي مع هؤلاء القوم شيئاً إذ وقعت الواقعة وقتل الامام الحسين عليه السلام وصحبه وأهل بيته عليهم السلام وانتهكت حرمة أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، ولا عذر لمن اشترك في ذلك الخطب الجليل، مع أن الكثير من أهل الكوفة آنذاك يعرفون الإمام الحسين عليه السلام حق معرفته وأرسلوا له يدعونه أن أقدم يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله لذلك نلحظ بأن خطابها عليها السلام كان لأناس على علم ودراية بأخيها عليه السلام وقد خذلوه على الرغم من جميع ذلك فخاطبتهم بأنهم يرحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة...الخ. ومن ثم كرّرت سخطها عليها السلام عليهم وبغضها لأفعالهم بأسلوب مختلف عن الأول ، إذ عمدت إلى استعمال الاستفهام الإنكاري هنا وتربط ما فعلوه بأخيها عليه السلام بها إذ تقول ((وأي كريمة له أبرزتم؟)) مع التأكيد على تكرار لفظ (أي)

هنا لما فيه من بعد تأنيب لفعلتهم الشنيعة تلك، الأمر الذي نرى أثره جلياً وواضحاً في نفوسهم فاستمروا في الاجهاش بالبكاء، ولكن أنّى ينفعهم ذلك!

وكذلك مع إنها عليها السلام قصدتهم بخطابها الى أن لكلامها عليها السلام أبعاداً تداولية حققتها جراء ذلك إذ أثر هذا الاستفهام الإنكار وتكراره في نفوس المتلقين عبر العصور ولفت انتباههم الى المعاني العميقة العقدية والاجتماعية والسياسية التي أبلغت عنها السيدة زينب عليها السلام.

أما في مجلس يزيد - لعنه الله - قالت عليها السلام: ((أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإمائك وسوقك بنات رسول الله سبايا..) (٣٧).

فهنا أيضاً عمدت عليها السلام الى استعمال الاستفهام الإنكاري، وكررت التعريف بنفسها وبالنساء اللاتي معها بأن صرحت وقالت (بنات رسول الله) إذ عبرت هنا بشكل مباشر عن ذلك، إذ الموقف الكلامي في مجلس يزيد يختلف عن الموقف السابق في الكوفة فهي لا تحتاج الى التصريح المباشر هناك فهي تخاطب من يعرفها حق المعرفة وخذلها وخذل أهل بيتها عليها السلام ولكن الأمر مختلف في مجلس يزيد، إذ هي عليها السلام غريبة أسيرة دخلت في مجلس طاغية حكم الناس بالقسوة والاضطهاد وصور لهم أهل البيت عليها السلام بشكل ينفع حكمه ويقوي سلطانه فصدق أغلبهم به حتى أن أهل الشام اعتقدوا بأن هؤلاء السبايا من حروب مع غير المسلمين الى آخر ما يتبع ذلك مما نعرفه جميعاً ولا يسعنا الحديث عنه مفصلاً هنا بشكل مباشر. الأمر الذي دعا بالسيدة زينب عليها السلام الى الكشف عن حقيقة شخصهم أمام الملأ، إذن التعبير بـ(بنات رسول الله سبايا) مقصود هنا بحد ذاته، وذلك للفت انتباه الجمهور وكسر توقعاتهم بهذه المرأة السبية ومن هي وكيف تتعرض لما تتعرض إليه من مواقف وتمر بهذه المصائب!!

إذن هذا التعبير يكشف عن مفارقة عظيمة ذهل منها الجمهور، إذ كيف لسبية أن تنعت الحاكم مباشرة وفي مجلس حكمه (يا ابن الطلقاء)؟!

وهم في هذا الذهول وهذه الحيرة يأتيهم الجواب (وسوقك بنات رسول الله سبايا)، وبهذا الأسلوب البلاغي الجليل (تخديرك حرائرك وإمائك وسوقك...) فالفرق كبير بين (الحرائر والإماء) وبين (بنات رسول الله صلى الله عليه وآله!!! فعيشت عليها السلام الجمهور صدمة عظيمة ، من ثم كررت التعريف بشخصها عليها السلام وبأهل بيتها عليها السلام بأن قالت: ((فلا يستبطئ في بغضنا أهل البيت من كان نظره إلينا شنفاً)(٣٨) فهي عليها السلام تؤكد على التعريف بشخصها وأحقيتها

ومكانتها من رسول الله صلى الله عليه وآله تكشف حقيقة المستمع (يزيد) أمام الجمهور.

ومن ثم تقول: ((منحنياً على ثنايا أبي عبد الله – وكان مقبل رسول الله صلى الله عليه وآله – ينكتها بمخصرته، قد التمع السرور بوجهه، لعمري لقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة، بإراقتك دم سيد شباب أهل الجنة، وابن يعسوب الدين العرب، وشمس آل عبد المطلب))[٣٩].

فهي هنا تعرف الجمهور بالإمام الحسين عليه السلام تبلغ عن شناعة فعل يزيد – لعنه الله تعالى – وتكشف عن عظم ما اقترفه من ذنب في قتله لسيد شباب أهل الجنة عليه السلام ذرية رسول الله وخيرة آل عبد المطلب ومن معه من أهله وصحبه، فهي عليها السلام كررت الإبلاغ عن كونها من أهل البيت عليهم السلام وبأن هذا الرأس الذي أمام الجمهور هو رأس الإمام الحسين عليه السلام حفيد رسول صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة وهذا التكرار المعنوي هنا له بعد تداولي آخر يختلف عن السابق فهي عليها السلام تكشف للمتلقين عن مفارقة عظيمة أخرى وهي كيف يقتل سيد شباب أهل الجنة وذرية رسول الله وخيرة آل عبد المطلب على يد حاكم طاغية مثل يزيد يدعو أشياخه الذين عرفوا بتاريخهم الأسود، فإن جهل الحاضرون من هي ومن السبايا ومن هذا القتيل فهم لا يجهلون تاريخ أشياخ يزيد وتاريخ قريش وتاريخ رسول الله صلى الله عليه وآله إذ مع جميع محاولاته لطمس هوية هؤلاء السبايا وقتلاهم أكدت السيدة زينب عليها السلام على التعريف بهم لا بذكرها لفضائلهم فقط إذ قد لا يؤثر ذلك في الجمهور ولا يهز كيانهم بقدر تأكيدها على كونهم ذرية رسول هذه الأمة، لأنه على الرغم مما فعل يزيد من تغطية إعلامية ومحاولته تجهيل الناس بالإمام الحسين عليه السلام وافترائه عليه بالعديد من الافتراءات وبث الشائعات عنه بين أهل الشام إلا انه يدّعى الإسلام ويحكم الناس باسم الدين فلا يستطيع النيل من رسول الله صلى الله عليه وآله أو يُغيب ذكره في نفوس القوم، الأمر الذي كان حاضراً عند السيدة زينب عليها السلام فأكدت على تكرار هذه الحقيقة بأكثر من أسلوب وفي أكثر من موضع بغية قلب موازين أذهان المتلقين وإلقاء الحجج على المستمع وعليهم، وقد نجحت عليها السلام في ذلك.

من هنا يتضح لنا ويتأكد لدينا بأن كلا من السيدتين الجليلتين عليهما السلام قد قصدتا استعمال التكرار بوصفه تقنية لسانية لها أبعادها التداولية في عموم المتلقين عبر العصور، وقد كان هذا التكرار اللفظي أو المعنوي متناسباً مع عناصر الموقف الكلامي في كل خطاب، فمع أن خطاب السيدة زينب عليها السلام هو بمثابة امتداد لخطاب أمها السيدة الزهراء عليها السلام، وقد كان

التكرار في خطابهما على القضية ذاتها وهي كونهما ابنتا رسول الله صلى الله عليه وآله ولهما حقاً إلهياً قد غصب وانتهك، إلا أن كل تكرار كان يحمل رسالة معينة للمتلقين فالسيدة الزهراء عليها السلام محترمة ومقدرة أثناء الخطاب بينما السيدة زينب عليها السلام أسيرة مضطهدة لذلك اختلفت غاية الإبلاغ في تقنية التكرار بالنسبة للخطابين.

٢ـ تقنية الاستعارة وفاعليتها في إبراز الحدث:

ما نريده من الاستعارة هنا ليس بوصفها أسلوباً بلاغياً تقليدياً يعتمد على التشبيه، بل سننظر إليها بوصفها أداة معرفية، وبوصفها أيضاً تقنية داخل الخطاب تساعد على كسر دوائر الإدراك الجامد للخطاب، بل وتعمل على إظهار قدرة الفكر الإحيائي على توليد الدلالات المختلفة، ومعنى ذلك أن الاستعارة تعد اداة لتطوير المفاهيم ووسيلة لخلق واقع، وليست لتزيين الواقع كما هو الحال في البلاغة القديمة(٤٠).

إذن فالمتكلم الحذق عندما يعمد الى استعمال (الاستعارة) في خطابه يكون مراعياً للنسق الثقافي الذي أثر في المتلقين حوله وتأثروا به، إذ ينبغي عليه التعامل مع ثقافة المتلقين بوعي بكل صغيرة وكبيرة فيهما، ويكون على قدر من العلم بحقيقة أفكار المتلقين سواء أكانت العقدية منها أو الاجتماعية أو السياسية أو غيرها، وبعد أن يكون جميع ذلك حاضراً في ذهنه يستعمل (الاستعارة) بوصفها إحدى تقنيات النسق الإبلاغي لما يريد الإفصاح عنه للمتلقين بصورة تكسر الجمود الفكري الذي سيطر على عقولهم بسبب الأعراف والتقاليد البالية أو باتباع من هو ليس أهلاً للاتباع نتيجة قلة الوعي وعدم الفهم أو بسبب عدم التفكير في ما ستؤول الأمور اليه مستقبلاً أو بسبب تغييب العقل واتباع الشهوات.

فإبلاغ المتكلم لرسالته بوساطة تقنية (الاستعارة) تبيّن لنا سعي (المتكلم) لإحياء فكر الآخر (المتلقي) من خلال فاعلية الاستعارة في إبراز الحدث والعمل على تشغيل فكر (المتلقي) وجعله يعمل على توليد دلالات جديدة لهذا الحدث.

وسنقف هنا عند استعارتين وردتا في خطاب السيدتين الجليلتين عليهما السلام يعملان على إبراز الحدث ذاته، لكن ما سنلحظه بأن الأبعاد التداولية لكل منهما تختلف عن الأخرى تبعاً لاختلاف الموقف الكلامي لكلا الخطابين.

وهاتان الاستعارتان هما:

الاستعارة الأولى في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء عليها السلام إذ قالت: ((فخطر في عرصاتكم، وأطّلَعَ الشيطان رأسه من مغرزه، هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزّه فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة {ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين}[٤١].

الاستعارة الثانية، في خطبة السيدة زينب عليها السلام في مجلس يزيد: ((وما استصغاري قدرك ولا استعظامي تقريعك توهماً لانتجاع الخطاب فيك بعد أن تركت عيون المسلمين به عبرى وصدورهم عند ذكره حرّا فتلك قلوب قاسية، ونفوس طاغية، وأجسام محشوة بسخط الله ولعنة الرسول قد عشش فيه الشيطان وفرّخ، ومن هناك مثلك ما درج ونهض))[٤٢].

من الملاحظ في هذين النصين المباركين هنا استعمال الاستعارة أثناء التعبير عن الشيطان الرجيم، ففي الخطبة الفدكية (اطلع الشيطان رأسه من مغرزه..) وفي الخطبة الزينبية في الشام (قد عشش الشيطان فيه وفرّخ)، ومع أن عدداً من الدارسين توقف عند هاتين الاستعارتين وفصل القول فيها (بلاغياً) إذ بينوا بأن (أطلع الشيطان رأسه من مغرزه) فيها استعارة القنفذ (وهو حيوان معروف) للشيطان (والمغرز) هو مغرز رأسه أي ما يختفي فيه[٤٣]، أما التعبير الثاني ففيه استعارة أيضاً من الطيور إذ عندما تستقر في مكان فهي تعشش فيه وتفرّخ صغارها[٤٤]، ومع أن هؤلاء الدارسين الكرام قد بينوا جميع ذلك، إلا أننا هنا - كما ذكرنا آنفاً - لسنا بصدد الوقوف على الاستعارة بوصفها أسلوباً بلاغياً يكشف عن قدرة المتكلم الكلامية وتمكنه من تصوير المعاني في ذهن المتلقي فحسب، بل ننظر إلى الاستعارة هنا من دائرة أوسع؛ ذلك بأن مراد السيدتين الجليلتين عليهما السلام هنا لا يتوقف عند هذه المعاني البلاغية بل يتعدى ذلك ليلفتا عليهما السلام ذهن المتلقي لحدث مهم وخطب جليل ألا وهو حقيقة واقع الأمة الإسلامية، فهنا إبلاغ عظيم وإبراز جليل لهذا الحدث كان للتصوير الاستعاري أثر كبير في ايصاله الى المتلقين بهذه الصورة. فكلا السيدتين الجليلتين عليهما السلام أرادتا الكشف عن حقيقة إسلام القوم، وبيان صدق الإيمان من عدمه في قلوبهم؛ ذلك بأن الله

سبحانه وتعالى ينظر إلى قلوب عباده، وليس الى كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم القرآن الكريم، فكم من قارئ للقرآن الكريم والقرآن يلعنه، وكم من مصلٍ وصائم ليس له من ذلك إلا الجهد والتعب، فالإيمان لا يكون بلفظ الشهادتين والصلاة والصوم وغيرها من العبادات بقدر ما هو تسليم لله تعالى في كل شيء صغيره وكبيره وجهاد في سبيله، وخصوصاً جهاد النفس فهو الجهاد الأكبر، ومدار جهاد النفس هو محاربتها للشيطان وعدم انقيادها له؛ ذلك بأن الضعف أمام الشيطان والانقياد لما يوسوس فيه خسران الدنيا والآخرة ولا يكون الخسران على مستوى الفرد فحسب بل تتوسع دائرته لتعم الأمة كلها، وهنا الطامة الكبرى.

وكما رأينا في تقنية التكرار، فاستعمال السيدة زينب عليها السلام لها كان امتداداً لأسلوب والدتها السيدة الزهراء عليها السلام في الخطاب مع مراعاة الموقف الكلامي لكل منهما ، كذلك الأمر هنا فكلتاهما عمدتا إلى إبراز الحدث ذاته عبر استعمال تقنية الاستعارة مع مراعاة اختلاف الموقف الكلامي، وتطور عناصر الحدث المقصود بالإبراز إذ بين الموقفين الكلاميين سنين عدة ألقى فيها النسق الثقافي للمجتمع بظلاله على جميع الأصعدة ومن أهمها الصعيد (العقدي)، ويتضح لنا الأمر من المقارنة بين الاستعارتين.

فالسيدة الزهراء عليها السلام عندما قالت (واطلع الشيطان من مغرزه) فيه تنبيه عن حال الأمة الإسلامية آنذاك، إذ كان الشيطان خائفاً فزعاً بوجود رسول الله صلى الله عليه وآله بين المسلمين إذ كلما حاول المنافقون والمشركون والكفار عمل المكائد وإطفاء نور الله تعالى أثبط محاولاتهم الرسول صلى الله عليه وآله، وكثير من المسلمين كان إسلامهم ضعيفاً ولكنهم بوجود رسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرهم أظهروا الجلادة والإيمان، واتباع أوامره صلى الله عليه وآله فما أن فارق الرسول صلى الله عليه وآله الحياة حتى ظهرت حقيقة إسلام القوم، فانتهز الشيطان الفرصة فهتف بهم فما أسرع أن استجابوا له، ليس هذا فحسب بل (استنهضكم فوجدكم خفافاً..)!!! فما أسرع أن تركوا حزب الله وانغمسوا في حزب الشيطان، ومن ثم قالت عليها السلام (فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير مشربكم) كناية منها عن توليتهم لأبي بكر وتركهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وإمامة الإمام علي عليه السلام ووصيته فيه وفي أهل بيته عليهم السلام، كل هذا والعهد قريب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر)!!! وفي تعبيرها الأخير عليها السلام إشارة لما سيحدث بعد ذلك أي إن كان هذه حال الأمة والعهد قريب فماذا بعد ذلك ؟!!

هذا ما كان موجهاً للمتلقين آنذاك ومن وجه لهم الخطاب مباشرة، أما ما يحمله من بعد تداولي فهو يشمل جميع المتلقين لهذا الخطاب عبر العصور، إذ في ذلك بيان لما حصل ولأسبابه ولما وقع في أمة رسول الله صلى الله عليه وآله؟! جميع ذلك أصله اختبار (حقيقة إيمان الأمة الإسلامية)، وهناك حزبان حزب الله وحزب الشيطان، فبأيهما نتمسك وبأيهما نقتدِ؟!

إذن فالإبلاغ هنا لا يشمل من حضر الخطاب وسمعه آنذاك فحسب، بل يتعداهم ليشمل الجميع ولكي يكون موقف القوم الأوائل الذين عاشوا ذلك الحدث آنذاك وعملت السيدة الزهراء عليها السلام على إبرازه وبيان خطره من خلال تقنية الإستعارة، وجعل ذلك نصب أعينهم ولفت نظرهم إليه وتنبيههم عليه عسى أن يتنبهوا إلى ذلك ويعوا ما تقول ولا يسقطوا في الفتنة، إلا أنها عليها السلام تعلم علم اليقين حقيقتهم، ولكنها ألقت عليهم الحجة وبينت لهم حقيقة عملهم وحقيقة إسلامهم ولهذا ختمت خطابها في هذه الفترة باستشهادها بقوله تعالى (ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)، وإن الاستشهاد بهذه الآية الكريمة هنا فيه إشارة وتنبيه عظيم لكل من يتلقى هذا الخطاب عنها عليها السلام أي انتبه وراجع نفسك وتمسك بحزب الله تعالى ولا تسقط في الفتنة كما سقط هؤلاء.

فهناك فئة سقطت فعلاً واتبعت الشيطان وهناك فئة مترددة ضعيفة الإيمان متزعزعة العقيدة تنقاد بسرعة وتصدق بكل من يتلبس بلباس الدين أو خوفاً من القتل أو طمعاً بالدنيا، فهؤلاء هم من عمدت السيدة الزهراء عليها السلام الى لفت نظرهم وتنبيههم عسى أن يعودوا الى الطريق الصحيح.

في حين الموقف الكلامي للسيدة زينب عليها السلام مختلف جداً فهي تكلم يزيد وأتباعه الذين قتلوا الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام وفعلوا ما فعلوا من جرائم وهي عليها السلام تعلم علم اليقين حقيقته – لعنه الله – وأتباعه لذلك أبلغت عن هذه الحقيقة أمام الملأ ولجميع المتلقين فيما بعد إذ قالت: (فتلك قلوب قاسية ونفوس طاغية وأجسام محشوة بسخط الله ولعنة الرسول قد عشش فيه الشيطان وفرّخ) ففي استعمال تقنية الاستعارة هنا إبراز لحدث عظيم بأن يزيد وأتباعه حزب الشيطان، لم يطلع عليهم الشيطان كما في خطاب الزهراء عليها السلام بل عشش في صورهم واستقر ونفث سمومه وانقادوا له بطواعية واسودت قلوبهم به اسوداداً كاملاً لا مجال للرجوع عنه، فكأنما صارت قلوبهم بيته وموطنه.

ولم يجبرهم الشيطان على ذلك بل هيئوا هم له الأمر وسهلوا له الطريق فكما أن الطيور لا تستقر ولا تفقس بيضها إلا في بيئة مناسبة ومكان مناسب يهيء لها الظروف المناسبة لاستقرارها كذلك حال يزيد وأتباعه هنا مع الشيطان.

وفي هذا التصوير الاستعاري كسر للجمود الذهني الذي يعاني منه الحضور آنذاك فالذي أمامهم لا يمثل (حاكم المسلمين) بل هو (شيطان لعين)، وبما أن هذا التعبير كسر صورة يزيد أمامهم جعلهم آنذاك في انتباه أكثر وتأثر أكبر بكلام السيدة زينب عليها السلام وبهؤلاء السبايا فانقلبت موازين الأمور إذ جمعهم يزيد - لعنه الله - لإذلال أهل البيت عليهم السلام فذل هو ومن معه، وكان خطاب السيدة زينب الإبلاغ الأول عن حقيقته وأتباعه لما اقترفوه بحق الإمام الحسين عليه السلام، ولذلك نقول دوماً بأن ثورة الإمام الحسين عليه السلام حسينية الوجود زينبية البقاء.

الخاتمة:

في نهاية هذه الدراسة نخلص إلى النتائج الآتية:

١ - النسق الإبلاغي نظام متكامل له تقنيات لسانية ونصية وتداولية خاصة به يعمد بوساطتها إلى إبلاغ متلقيه بما يريده ليؤثر فيه ويزيد من تفاعله مع ما يبلغ به، وهو يتعاضد مع (النسق الثقافي) ذلك التعاضد الذي يجعل المتكلم يقصد استعمال مفردة بحد ذاتها أو أسلوباً لغوياً معيناً دون غيرها، فهذه القصدية في اختيار المفردات والأساليب تتم بمراعاة البعد الثقافي للمتلقين وكيفية فهمهم للخطاب الذي يتلقونه، إذ هناك معانٍ ظاهرة بسيطة يفهمها عموم المتلقين وهناك معانٍ مفردة لا يفهمها إلا الخواص كل بحسب ثقافته ومرجعياته الفكرية.

٢ - إن خطاب السيدتين الجليلتين كان خطاباً إبلاغياً مقصوداً بكل أسلوب من أساليبه اللغوية وبكل تقنية من تقنياته النصية والخطابية، إذ لم تكونا عليهما السلام مضطرتان إلى إلقاء هذا الخطاب، ولم تجبرهما عناصر (الموقف الكلامي) على ذلك، بل تم اعتماد هذا النسق من الإبلاغ بعناية وبتدبر وبعد علم ودراية بجميع ما تمر به الامة الإسلامية.

٣ - إن خطاب السيدة زينب عليها السلام يمثل امتداداً لخطاب والدتها السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام إذ أبلغتا عن الموضوعات ذاتها وكشفتا عن حقيقة واقع الأمة الإسلامية وما تعاني

منه من اتباع الشيطان وتزعزع العقيدة واللهث وراء الدنيا وبينتا أسباب ذاك باستعمال تقنيات لغوية مهمة كان لها ابعاداً تداولية عظيمة قلبت موازين الموقف الكلامي آنذاك، ليس هذا فحسب بل كان لها صدى إعلامياً منذ ذلك الحين الى يومنا هذا، وقد جاءت هذه التقنيات المعتمدة في الخطاب متناسبة مع عناصر الموقف الكلامي لكل منهما عليهما السلام.

هوامش البحث

(١) كتاب العين: ٨١/٥.

(٢) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية: ١٥٥٨/٤، والمحكم والمحيط الأعظم ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ): ١٤٧/٦، وأساس البلاغة، الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): ٢٦٦/٢.

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية: ١٥٥٨/٤.

(٤) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس: ٤١٩/٢٦.

(٥) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي: ٤١٠.

(٦) ينظر: مدخل إلى نظرية الأنساق، نيكلاس لومان، ترجمة: يوسف فهمي حجازي: ٥ وما بعدها.

(٧) أقصد بالنسق هنا، المعنى الاصطلاحي لا المعنى اللغوي ؛ ذلك بأنَّ المعنى اللغوي موجود في المعجمات العربية كما تم بيانه، وقد أخذته العلوم الأخرى منها.

(٨) ينظر: علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز:٢٨.

(٩) ينظر: اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات: ٢١٩.

(١٠) للتفصيل أكثر ينظر: النسق الإبلاغي في القرآن الكريم (دراسة لسانية تداولية)، فاطمة السلامي: ٣٠.

(١١) ظ: أنساق التداول التعبيري، د. فائز الشرع: ٧٠ وما بعدها.

(١٢) المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة: ١٦٧.

(١٣) لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: ٣٦.

(١٤) المرجع نفسه: ٣٦ – ٣٧.

(١٥) النقد الثقافي، عبد الله الغذامي: ٧٧.

(١٦) للتفصيل أكثر في نظرية السياق وأهميتها وتطبيقاتها ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري: ٤ وما بعدها، والنقد اللساني، روجر فاولر، ترجمة: د. عفاف البطاينة، ١٨٩ – ٢١٨.

(١٧) نظرية سياق الحال، مقال منشور في موقع الرؤيةalroeya.com في تاريخ ٢٤/ ديسمبر، ٢٠١٥م، بتصرف.

(١٨) تم الاعتماد على المصادر الآتية في نقل نصوص الخطب وهي كلاً من: الاحتجاج، للشيخ الطبرسي، تعليق السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٦م، وبحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٢٣٣/٢٩ وما بعدها، تحقيق الشيخ عبد الزهرة العلوي، دار الرضا، بيروت - لبنان، ومفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي النقوي القايني الخراساني: ١٢٥/٣ وما بعدها، مطبعة علمي، طهران، ١٤٠٣هـ، وشرح الاخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي النعمان المغربي (ت٣٦٣هـ): ٣٤/٣ وما بعدها، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ايران، ومن فقه الزهراء، السيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، ط٢، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م، الأمالي، الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ)، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الثقافة، ط١، ١٤١٤هـ. وأعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، والموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء عليها السلام، اسماعيل الأنباري الزنجاني، نشر (دليلنا)، إيران.

(١٩) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١٣٢.

(٢٠) المصدر نفسه: ١/ ١٣٣.

(٢١) المصدر نفسه: ١/ ١٣٤.

(٢٢) المصدر نفسه: ١/ ١٣٧.

(٢٣) المصدر نفسه: ١/ ١٣٧.

(٢٤) المصدر نفسه: ١/ ١٤١.

(٢٥) ينظر: موسوعة أهل البيت الحضارية، الدكتور محمد حسين الصغير، مؤسسة البلاغ، دار سلوني، ط١، ٢٠٠٤م. وموسوعة حياة الإمام الحسين عليه السلام وثورته المباركة برواية أئمة اهل البيت عليهم السلام، د. هادي التميمي، منشورات دليل ما، إيران، ط١، ١٣٩٩ هـ.ش. زينب الكبرى ودورها في النهضة الحسينية، عبد السلام كاظم الجعفري، دار الغدير، قم المقدسة، إيران، ط١، ١٤٣٢هـ، وسيرة الأئمة الأثنى عشر، هاشم معروف الحسيني، منشورات الإمام الرضا عليه السلام، بيروت، لبنان، ط٧، د.ت.، وسلسلة (مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة/ دراسة تاريخية تحليلية، إعداد ونشر مركز الدراسات الإسلامية لممثلية الولي الفقيه في حرس الثورة الإسلامية - مديرية دراسات عاشوراء، ط٣، ١٣٨٤ هـ.ش.

(٢٦) ينظر: في بلاغة الخطاب الاقناعي، د. محمد الصميدعي: ٧.

(٢٧) ابن وهب، البرهان: ١٥١ - ١٥٣.

(٢٨) doetiaue.n.5p.105 نقلاً عن د. محمد العمر، في بلاغة الخطاب الإقناعي: ١٣.

(٢٩) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر المجلدات الخاصة بـ(جائزة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، للإبداع الفكري) من مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد (٢٠)، جمادي الآخر ١٤٣٤ - آيار ٢٠١٣م.

(٣٠) ينظر: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتاح احمد يوسف: ١٠٠.

(٣١) الاحتجاج، الطبرسي: ١٣٤/١.

(٣٢) المصدر نفسه: ١٣٩/١.
(٣٣) ينظر: الأمالي، الشيخ الطوسي: ٣٧٤ وما بعدها.
(٣٤) الأمالي، الشيخ الطوسي: ٣٧٤.
(٣٥) أعيان الشيعة، محسن الامين: ٦١٣/١.
(٣٦) المصدر نفسه: ٦١٣/١.
(٣٧) الاحتجاج، الطبرسي: ٣٥/٢.
(٣٨) المصدر نفسه: ٣٦/٢.
(٣٩) الاحتجاج، الطبرسي: ٣٦/٣.
(٤٠) لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتاح أحمد يوسف: ١٧٣، بتصرف.
(٤١) الاحتجاج، الطبرسي: ١٣٦/١.
(٤٢) المصدر نفسه: ٢/ ٣٧.
(٤٣)ينظر: الأسرار الفاطمية، الشيخ محمد فاضل المسعودي: ٤٨١.
(٤٤) ينظر: المجازات النبوية، الشريف الرضي: ٥٥.

قائمة المصادر والمراجع

١. الاحتجاج، للشيخ الطبرسي، تعليق السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٦م.
٢. الأسرار الفاطمية، الشيخ محمد فاضل المسعودي، تقديم آية الله السيد عادل العلوي، ط٢، إيران، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٣. استراتيجيات الخطاب/مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٤م.
٤. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، دار العارف للمطبوعات، بيروت، لبنان
٥. الأمالي، الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ)، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الثقافة، ط١، ١٤١٤هـ.
٦. أنساق التداول التعبيري/دراسة في نظم الاتصال الأدبي (ألف ليلة وليلة أنموذجاً تطبيقياً)، الدكتور فائز الشرع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط ١، ٢٠٠٩م.
٧. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تحقيق الشيخ عبد الزهرة العلوي، دار الرضا، بيروت - لبنان.

٨. البرهان في وجوه البيان ،اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٩. زينب الكبرى ودورها في النهضة الحسينية، عبد السلام كاظم الجعفري، دار الغدير، قم المقدسة، إيران، ط١، ١٤٣٢هـ.

١٠. سلسلة (مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة/ دراسة تاريخية تحليلية)، إعداد ونشر مركز الدراسات الإسلامية لمثلية الولي الفقيه في حرس الثورة الإسلامية - مديرية دراسات عاشوراء، ط٣، ١٣٨٤ هـ.ش.

١١. سيرة الأئمة الأثنى عشر، هاشم معروف الحسيني، منشورات الإمام الرضا عليه السلام، بيروت، لبنان، ط٧، د.ت.

١٢. شرح الاخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي النعمان المغربي (ت٣٦٣هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ايران.

١٣. علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجمة:د. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، العراق، ط٣، ١٩٨٥م.

١٤. في بلاغة الخطاب الاقناعي- مدخل نظري وتطبيقي في دراسة البلاغة العربية، د. محمد العمري، افريقا الشرق، المغرب، ٢٠٢م.

١٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجواهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.

١٦. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، بدون تاريخ.

١٧. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، إعداد: الدكتور عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٩٨م.

١٨. لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتاح احمد يوسف، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٩. المجازات النبوية، الشريف الرضي، تحقيق وشرح طه محمد الزيتي، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، ايران.

٢٠. مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي النقوي القايني الخراساني، مطبعة علمي، طهران، ١٤٠٣هـ.

٢١. من فقه الزهراء، السيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، ط٢، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م.

٢٢. الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء عليها السلام، اسماعيل الأنباري الزنجاني، نشر (دليلنا)، إيران.

٢٣. موسوعة أهل البيت الحضارية، الدكتور محمد حسين الصغير، مؤسسة البلاغ، دار سلوني، ط١، ٢٠٠٤م.

٢٤. موسوعة حياة الإمام الحسين عليه السلام وثورته المباركة برواية أئمة اهل البيت عليهم السلام، د. هادي التميمي، منشورات دليل ما، إيران، ط١، ١٣٩٩ هـ.ش.

٢٥. مدخل إلى نظرية الأنساق، نيكلاس لومان، ترجمة: يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، بدون تاريخ.

٢٦. النسق الإبلاغي في القرآن الكريم/ دراسة لسانية تداولية، د. فاطمة السلامي، مؤسسة دار الصادق الثقافية، بابل، العراق، ط١، ٢٠١٦م.

٢٧. نظرية سياق الحال، مقال منشور في موقع الرؤيةalroeya.com في تاريخ ٢٤/ ديسمبر، ٢٠١٥م.

٢٨. النقد الثقافي في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط٣، ٢٠٠٥م.

٢٩. النقد اللساني، روجر فاولر، ترجمة د. عفاف البطاينة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٢١م.

١. المدارس اللسانية المعاصرة، الدكتور نعمان بوقرة، مكتبة الآداب، القاهرة.

٢. مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، المجلدات الخاصة بـ(جائزة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، للإبداع الفكري)، العدد (٢٠)، جمادي الآخر ١٤٣٤ - آيار ٢٠١٣م.